بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الروم من الآية (١) إلى الآية (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين وللمستمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير سورة الروم: {الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [سورة الروم:١-٧].

نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم، واضطر هرقل مَلك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية، وحاصره فيها مدة طويلة، ثم عادت الدولة لهرقل، كما سيأتي.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، في قوله تعالى: {الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ} قال: غُلبت وغَلَبت، قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب، فذُكر ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أما إنهم سيَغلبون)) فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلا فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجلا خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر للنبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((ألا جعلتها إلى دُون))، أراه قال: ((العشر))، "قال سعيد بن جبير: البضع ما دون العشر، ثم ظهرت الروم بعدُ، قال: فذلك قوله: {الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}[١].

هكذا رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب.

وروى أبو عيسى الترمذي عن نيَار بن مُكرَم الأسلمي قال: لما نزلت، {الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ}، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك قول الله: {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}، وكانت قريش تحب ظهور فارس؛ لأنهم وإياهم

---

١ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الروم، برقم (٣١٩٣)، والإمام أحمد في المسند، برقم (٢٤٩٥)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة: {الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ}، قال ناس من قريش لأبي بكر: فذاك بيننا وبينك، زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى -وذلك قبل تحريم الرهان- فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضَعُوا الرهان، وقالوا لأبي بكر: كم تجعل -البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين- فَسمِّ بيننا وبينك وَسَطًا ننتهي إليه، قال: فسموا بينهم ست سنين، قال: فمضت ست السنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين، قال: لأن الله قال: {فِي بِضْعِ سِنِينَ}، قال: فأسلم عند ذلك ناس كثير[٢].

هكذا ساقه الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول ابن كثير -رحمه الله-: **نزلت هذه الآية حينما غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الرم**، المقصود بالجزيرة هنا أي الواقعة بين العراق والشام، وليس المقصود بذلك جزيرة العرب، وقوله -تبارك وتعالى-: {غُلِبَتِ الرُّومُ} هذه قراءة الجمهور ببناء الفعل للمجهول وذلك حينما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- بمكة وحصلت قصة الرهان المعروفة بعد ذلك، القراءة الأخرى قراءة أهل الشام {الم * غَلَبَتِ الرُّومُ} فهذه نزلت حينما انتصر الروم على الفرس، ويقولون: إن ذلك كان في يوم بدر كما سيأتي عند قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ} حيث إن هذا النصر الذي يفرحون به يحتمل أن يكون الانتصار على المشركين أنه يشير إليه أو أن ذلك يكون بانتصار الروم على الفرس؛ لأن الروم ينتسبون إلى كتاب فلهم نوع اتصال ووشيجة بدين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وإن كانوا على باطل وشرك، ولكن مهما يكن فهؤلاء أقرب إلى المسلمين من الوثنيين الخلّص، وعلى هذا تكون الآية نازلة مرتين مرة في مكة {غُلِبَتِ الرُّومُ}، ومرة في المدينة، ومعلوم أن القراءتين إذا كان لكل قراءة معنى فهما بمنزلة الآيتين فهذه تخبر عما حصل للروم من الغلبة والهزيمة، والأخرى تخبر عن تغلبهم وانتصارهم ولا إشكال في هذا، والانتصار الذي حصل للروم على الفرس لم يكن انتصاراً في أرض المعركة بالمعنى المعروف أنهم تقابلوا مع الروم وجهاً لوجه في ميدان المعركة، وانتصروا عليهم، وإنما كان ذلك بحيلة احتالوا بها، احتال بها هرقل على الفرس وعلى ملكهم سابور، ومعلوم أن الفرس كانوا أشد بأساً في القتال وأكثر ضراوة فيه، ولهذا فإن الفتوح التي كانت في بلاد فارس والروم حيث كانت بداية ذلك في عهد أبي بكر -رضي الله عنه- ثم إن عمر -رضي الله عنه- هو الذي نقض عروشهم فالفرس على شدتهم وقوتهم في القتال كانت العرب تعلم ذلك، ولهذا كان ينادى في الناس كثيراً حيث يندبون للخروج إلى الجهاد في العراق وبلاد الشام بعد حروب الردة فكان الناس يذهبون إلى الشام وذلك لسببين:

---

٢ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الروم، برقم (٣١٩٤)، وحسنه الألباني في السلسلة الضعيفة، تحت حديث رقم (٣٣٥٤).

الأول: هو ما جاء في فضائل الشام.

والثاني: هو ما استقر في قلوب العرب من شدة الفرس وشراستهم في القتال مع أن ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- عن فارس نطحة أو نطحتان، ثم بعد ذلك ينتهي الأمر، وهذا الذي حصل، أما الروم فقال عنها النبي -صلى الله عليه وسلم- ذات القرون كلما ذهب قرن طلع وجاء قرن آخر، وهكذا كما هو مشاهد، فالشاهد أنهم ما انتصروا عليهم في أرض المعركة، لكنهم انتصروا بحيلة، مع أن المسلمين بعد ذلك بمدة ليست بالطويلة اجتمع عليهم في بعض المعارك في الفتوحات لبلاد الشام والعراق لما كانت متزامنة اجتمع في بعض المعارك الفرس والروم لربما لأول مرة يجتمعون في التاريخ اجتمعوا لقتال المسلمين وانهزموا.

ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمة، فقوله تعالى: {الم * غُلِبَتِ الرُّومُ} قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة، وأما الروم فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم بني إسرائيل، ويقال لهم: بنو الأصفر، وكانوا على دين اليونان، واليونان من سلالة يافث بن نوح، أبناء عم الترك، وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة، ويقال لها: المتحيرة، ويصلون إلى القطب الشمالي، وهم الذين أسسوا دمشق، وبنوا معبدها، وفيه محاريب إلى جهة الشمال، فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة.

يعني كان الروم على دينهم وهو الوثنية حتى مبعث المسيح -عليه الصلاة والسلام- بثلاثمائة سنة يعني بعده، لما دخل قسطنطين في النصرانية أو أدخل النصرانية في وثنيته وجنى عليها الجناية المعروفة في التاريخ وأفسدها إفساداً عظيماً.

وكان مَن مَلَكَ الشام مع الجزيرة منهم يقال له: قيصر، فكان أول من دخل في دين النصارى من الملوك قسطنطين بن قسطس، وأمه مريم الهيلانية الشدقانية من أرض حران.

يعني هي تسمّت مريم و لم يكن ذلك اسماً لها.

كانت قد تنصرت قبله، فدعته إلى دينها، وكان قبل ذلك فيلسوفا، فتابعها -يقال: تَقِيَّة.

يقال:إنه تابعها تقيّة منذ دخل في النصرانية، يعني المقصود من غير إيمان حقيقي، وليس المقصود بالتقية أنه كان يخاف أو نحو ذلك، وإنما كانت تدعوه حيناً بعد حين، فحصل له موقف وكان ذلك سبباً لتنصره، وقد كان يؤذي النصارى ويضطهدهم، وقد فر بعض رجال دينهم كما يقال، فروا منه، يفرون ويختفون، فرأى رؤيا، وكان قد مرض وأُخبر في هذه الرؤيا أنه يبرأ على يدي فلان أو نحو ذلك، فطلبه وكان قد استخفى منه وجاء هذا الرجل وعالجه كما يزعمون وأرشده إلى بعض الأمور فَسُر به، وكان ذلك سبباً لدخوله في النصرانية، ولم يكن خائفاً فيها، عكس ذلك كان يتخوف من قومه بأنه كان في روما قبل بناء القسطنطينية، وكانوا على الوثنية، وكان يتخوف من هؤلاء ويتخوف من الفرس فبنى القسطنطينية ثم انتقل إليها، فلما علم قومه في روما أنه قد دخل في النصرانية غضبوا وملّكوا رجلاً آخر، ثم بعد ذلك سار إليهم، وقبل أن يصل إلى روما رجعوا إلى طاعته فدخلها، جاءت أمه بعد ذلك إلى الشام وهي التي بنت فيها الكنائس وفي أرض مصر، واستخرجت الكنوز كنوز الملوك، وأنفقت خزائن الملوك في بناء الكنائس والمعابد وتشييد النصرانية في بلاد الشام ومصر وبلاد الروم حتى قيل: إنه لا يوجد كنيسة في الشام ومصر وبلاد الروم إلا كان ذلك

من بنائها هي، حتى قيل: إنها بنت مع ولدها اثنتي عشرة كنيسة.

واجتمعت به النصارى، وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس، واختلفوا اختلافا كثيرًا منتشرا متشتتا لا ينضبط، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا، فوضعوا لقسطنطين العقيدة، وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة، وإنما هي الخيانة الحقيرة، ووضعوا له القوانين -يعنون كتب الأحكام من تحليل وتحريم وغير ذلك مما يحتاجون إليه-، وغَيَّروا دين المسيح -عليه السلام-، وزادوا فيه ونقصوا منه.

هذا الاجتماع الذي حصل هو الاجتماع المعروف باجتماع نيقيا، وهو الذي أقرت به عقيدة التثليث، وأقرت به الأناجيل الأربعة من بين أناجيل كثيرة جداً ومختلفة، يقول: **فوضعوا لقسطنطين العقيدة التي يسمونها الأمانة الكبرى، وإنما هي الخيانة الحقيرة ووضعوا له القوانيين**، يعني من كتب الأحكام فهذا في كتاب سموه القانون، وذلك أن هؤلاء لشدة بغضهم لليهود هم متعبدون أصلاً في دينهم بالتوراة؛ لأن عيسى -صلى الله عليه وسلم- لم يكن ناسخاً للتوراة، فهو متعبد فيها، فهؤلاء لشدة كراهيتهم لليهود والعداوة التي بينهم تركوا العمل بالتوراة، فبقوا بلا قانون فاخترعوا هذا القانون؛ من أجل أن يتحاكموا إليه وتنضبط حياتهم بمرجع يصدرون عنه، ويرجعون إليه إذا اختلفوا ويحتكمون إليه.

فصلوا إلى المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير.

واتخذوا أعيادًا أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس، وغير ذلك من البواعيث والشعانين، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم.

يعني البابا كبير النصارى.

وكان اليهود يصلون إلى الصخرة، والسبب في ذلك يزعمون أنهم كانوا يصلون إلى التابوت يحملونه معهم في مغازيهم وإذا رجعوا إلى البلد وضعوه على الصخرة فيصلون إليها، فلما ظهر النصارى وتمكنوا اضطهدوا اليهود يعني من عهد قسطنطين فما بعده فصار هذا المكان الذي يتجه إليه اليهود صار موضعاً -أعزكم الله- للزبائل والقاذورات حتى جاء الفتح الإسلامي فأميط ما هنالك، ولكن ذلك لا يعني أن يقدس المسلمون الصخرة إطلاقاً، ولا يعني هذا أن تبرز القبة التي عليها وُضعت، وحقها أن تزال فلا معنى لها أصلاً، فهي معظمة عند اليهود -هذه الصخرة- وليس لها عند المسلمين معنى، لكن عبد الملك بن مروان لما قيل له: إن ابن الزبير في مكة والناس يأتون إلى الحج والعمرة فيلقونه وأنت في الشام عمد إلى هذه الصخرة وبنى عليها هذا البناء، وضع عليها هذه القبة وزوقها وزينها غاية التزيين، يريد أن يأتي الناس إلى بلاد الشام يكون هناك شيء يأتون إليه ولو أنه أصلح المسجد الأقصى لكان أولى، وأفعل التفضيل ليس على بابه هنا، وأحد الأشياء التي لا أفهمها إلى اليوم هو ما يحصل من عرض قبة الصخرة إذا جاء الحديث عن المسجد الأقصى مع أني كنت أتوهم أن اليهود قصدوا هذا من أجل أن الناس لا يعرفون عن المسجد، فإذا هدم فإن الناس ينظرون إلى قبة الصخرة أهم شيء أنها لم تمس، لكن حينما يأتي الدعاة وحين يتحدثون عن الأقصى أو يقيمون المؤتمرات ويضعون القبة خلفية لملتقياتهم ومؤتمراتهم، الشيء الذي لم أستطع فهمه إلى الآن! حتى صارت صورة المسجد الأقصى الحقيقية كثير من المسلمون لا يعرفها ولا يعرف من المسجد الأقصى إلا قبة الصخرة، فكان اليهود يصلون إليها؛ لأنهم يزعمون أنهم كانوا يضعون التابوت، والنصارى لشدة

كراهيتهم لهم خالفوهم في القبلة فصاروا يستقبلون المشرق، وخالفوهم في عيدهم الذي هو يوم السبت وهؤلاء النصارى في الأصل هم بنو إسرائيل حتى دخل الرومان كما قال الله -عز وجل-: {فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ} [سورة الصف:١٤]، لما جاءهم عيسى -عليه الصلاة والسلام- ودعاهم وأخبرهم بما أخبرهم به، وأنه مبشر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد فانقسموا هذا الانقسام، فصار بينهم من العداوة ما هو معلوم، فخالفوهم بعيدهم وصار يوم الأحد، وخالفوهم بالقبلة واخترعوا لهم هذه العقيدة سموها الأمانة الكبرى اخترعوا لهم شريعة أو قانوناً يتحاكمون إليه، ثم كثرت عندهم هذه الأعياد.

ثم البتاركة، ثم المطارنة، ثم الأساقفة والقساقسة، ثم الشمامسة، وابتدعوا الرهبانية، وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية، يقال: إنه بَنى في أيامه اثنتي عشرة ألف كنيسة، وبنى بيت لحم بثلاثة محاريب، وبنت أمه القمامة، وهؤلاء هم الملكية، يعنون الذين هم على دين الملك.

ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الإسكاف.

هؤلاء الملكانيون يعني على دين الملك على دين قسطنطين، والفرق الأخرى إلى هي اليعقوبية والنسطورية، ثم ظهرت بعد ذلك البروتستنتية فهي متأخرة كان ذلك على يد "مارتن لوثر" كما هو معلوم، وتخلصوا من كثير من الطقوس والخزعبلات عند النصارى ورفضوها، هم فرقة متأخرة تعتبر جديدة، ولذلك العلماء في الملل والنحل الذين كتبوا قديماً لا يذكرونها، وإنما يذكرون هذه الطوائف الثلاث.

ثم النسطورية أصحاب نسطورا، وهم فرق وطوائف كثيرة، كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنهم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة))[٣].

والغرض أنهم استمروا على النصرانية، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده، حتى كان آخرهم هرقل.

هذه الأشياء التي ذكرها الحافظ ابن كثير يُعرّف بها تعريفاً موجزاً فيما يتعلق بالشعانين، والشعانيين عيد، ويقال له: عيد الزيتونة، ويقول بعضهم: عيد التسبيح، ويزعمون -كما هي العادة في فِراهم ومختلقاتهم وما عندهم من الأكاذيب والخرافات- أنه قيل له: عيد التسبيح؛ لأن عيسى -عليه الصلاة والسلام- لما دخل إلى بيت المقدس وكان الناس حوله يسبحون فقيل له: عيد التسبيح، هكذا زعموا، وهذا يوافق أول أحد في صومهم، أول أحد في صومهم يُخرجون ورق الزيتون والذين ليس عندهم زيتون يَخرجون بسعف النخيل، المهم يخرجون معهم بشيء في أيديهم من الشجر والأغصان، فيخرجون بأغصان الزيتون ونحو ذلك ويزعمون أن ذلك مشابهة لما جرى للمسيح -عليه الصلاة والسلام-، فهم يزعمون أن عيسى -صلى الله عليه وسلم- لما دخل بيت المقدس في حال من التواضع، ويقولون: إنه كان يركب أتاناً ومعها جحش، وأن اليهود لما رأوه دخل وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أغروا به السفهاء فثار عليه غوغاء الناس، وكانوا قد وكلوا به بعض الغوغاء الذين يقال لهم: البلطجية معهم عصيّ يضربونه بها، يقولون: فهذه العصيّ

---

٣ - رواه الترمذي، كتاب الإيمان عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في افتراق الأمة، برقم (٢٦٤٠)، وأحمد في المسند، برقم (٨٣٩٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٠٣).

أورقت فآمن هؤلاءِ فسجدوا للمسيح -عليه الصلاة والسلام- هكذا يزعمون، فيقولون: عيد الشعانين إحياء لهذه المناسبة، وعندهم مناسبات كثيرة لا تنتهي، لكن هذا نموذج من المناسبات والأعياد التي تأتي للمسلمين باسم –أحياناً- جميل؛ لأنه اسم يأتي إنجليزيا فتجد أن المحتسبين يتعبون في مدافعتها، وإقناع الناس ببطلانها، فهذا أول أحد وهو سابع يوم في صومهم، البداية تكون بعد يوم الأحد، هو عيدهم، فسابع يوم وأول أحد في عيدهم هو موضع ذلك، سابع يوم في صومهم موعد ذلك عيد يقول: يوافق اليوم الثاني والأربعين من الخمسين التي يصومونها هكذا قال بعضهم، وبعضهم يقول: إنه يوافق ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في "اقتضاء الصراط المستقيم"، ونحن نتحدث عن خرافة لكن هذا الذي يذكرونه فيه: أنه أول أحد، أو اليوم الثاني والأربعون يعني الأسبوع السابع، وبعضهم يقول: إنه عيد لهم يقيمونه يوم الأحد السابق لعيد الفصح، ويحتفلون به لحمل السعف ويزعمون أن ذلك ذكرى لدخول المسيح بيت المقدس، بعد هذا العيد بأربعة أيام يأتي عيد الفصح الذي خرج فيه موسى وقومه من مصر، فهذا العيد يحتفل فيه اليهود بهذه المناسبة، ويحتفل به النصارى لمعنى آخر عندهم، وبعده بثلاثة أيام عيد القيامة، يزعمون أنه اليوم الذي خرج فيه عيسى -صلى الله عليه وسلم- من القبر؛ لأنهم يقولون: إن عيسى -صلى الله عليه وسلم- لما صلب ودفنه اليهود قام من قبره بعد ثلاثة أيام، فقتْلُه عندهم -بزعمهم أنه قتل وصلب- يوافق عيد الفصح، وبعد ثلاثة أيام خرج من القبر فسموه عيد القيامة قام من قبره حياً بعد قتله بزعمهم، وبعده بثمانية أيام عندهم عيد اسمه عيد السعيد، ويقولون: هذا اليوم الذي بعدما ظهر من القبر اليوم الذي قابل فيه أصحابه زارهم وأوصاهم هكذا يزعمون، وبعد ثمانية وثلاثين يوماً عندهم عيد يسمونه عيد السِلاق يزعمون أن هذا هو اليوم الذي صعد فيه إلى السماء، وعندهم عيد الصليب اخترعته أم قسطنطين يوافق اليوم الذي وجدوا فيه الصليب الذي يزعمون أنه صُلب عليه عيسى -عليه الصلاة والسلام-، فيزعمون أن أم قسطنطين لما جاءت إلى الشام بدأت تتحرى وتسأل على الموضع الذي صلب فيه المسيح -عليه الصلاة والسلام-، وعن الخشبة التي صلب عليها بعد نحو ثلاثمائة سنة، فكانت تسأل اليهود وتمتحنهم في ذلك وهم يقولون: لا نعلم، يزعمون أنها تتحرى وتسأل وتعذب اليهود حتى توصلت إلى ثلاثة فحبستهم في بئر وبقوا فيها أياماً لا يأكلون ولا يشربون فبلغ ذلك بهم إلى حال أشرفوا فيها على الهلكة فذكر أحدهم أن أباه سمع من أبيه أن المسيح -عليه الصلاة والسلام- صلب في المكان الفلاني وأن الخشبة التي صلب عليها هناك، فهؤلاء صاحوا بالناس خارج البئر فقالوا لهم: أخرجونا، فهذا الرجل يزعم أنه سمع من أبيه، وأن أباه سمع من جده، والشاهد أنهم أخرجوهم فأرشدهم إلى هذا المكان، مكان -أعزكم الله ومن يسمع- كله مزابل قمامة فأمرت أم قسطنطين بإزاحتها ثم بعد ذلك يزعمون أنها استخرجت الصليب يعني من حفرة هناك، ويزعمون أن عيسى -عليه الصلاة والسلام- دفن فيها ثم بعد ثلاثة أيام خرج فأخرجت الصليب، وأماطت عنه الأذى، وحلته بالذهب والفضة، وأقامت في هذا المكان الذي هو مزبلة قمامة أقامت فيه كنيسة القمامة، واتخذوا ذلك يوم عيد سموه عيد الصليب، هذا بالنسبة لعيد الصليب، وأما عيد الغِطاس بكسر الغين، ويقال له: أيضاً عيد الحميم، ويقال: الدنح فيوافق يوم ١٩ يناير، ويزعمون أن يحيى بن زكريا -عليه السلام- المعروف عندهم بيوحنا المعمدان يقولون: إنه عمد المسيح نهر الأردن، فالنصارى يعمدون الأولاد الصغار عندهم يأخذونهم ويغمسونهم فيما

يزعمون أنه مقدس، هذه عقيدة عند النصارى، فالشاهد يقولون: إن يحيى -عليه السلام- عمد المسيح -عليه السلام- في نهر الأردن وإنه عندما غسله عمده يعني اتصلت به روح القدس فصار النصارى بعد ذلك يغمسون أولادهم بالماء في هذا اليوم، وينزلون فيه بأجمعهم، ويقولون: إن أصل كلمة الغِطاس ليست عربية وإن أصلها أغريغية وهي تعني الظهور، يعني ليس الغطس بالماء وإنما الظهور، وهي عندهم كلمة دينية تعني ظهور شيء غير مرئي، يعني ما اتصلت بعيسى -صلى الله عليه وسلم- روح القدس فهذا عيد الغطاس، وانظروا هذه الأباطيل والخرافات كيف تنطلي ثم يقدم ذلك للعالم على أنها ديانة عالمية، وتبذل الجهود الضخمة في نشرها في مشارق الأرض ومغاربها، هيلانة الحرّانية هذه التي سمت نفسها بمريم أم قسطنطين هي التي اخترعت العيد السابق عيد الصليب، وكان ذلك بعد مجيء قسطنطين بسبع سنين حينما جاءت إلى الشام وحصل ما حصل، ويقولون: إن هذا يوافق ١٤ أيلول بعد ولادة المسيح -عليه الصلاة والسلام- بثلاثمائة سنة، وهذا قول بعض المتقدمين، لكن بعض المعاصرين يقول: إن عيد الصليب هذا هو ما يسمى اليوم بعيد الكريسماس، عيد الصليب يعني غير عيد الميلاد في رأس السنة، وعيد الكريسماس هو عيد الصليب في ١٤ أيلول، وأما الباعوث فهو أيضاً عيد للنصارى، يقال بأن أصله من الانبعاث، فهم منبعثون إليه من كل ناحية ويجتمعون كما يجتمع المسلمون يوم الأضحى والفطر، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يذكر أنهم يسمون هذا العيد يعني يسمونه الشعانين، يقول: "وكل مخرج يخرجونه إلى الصحراء يقولون له: باعوث"، فالباعوث عندهم اسم جنس بما يظهر به الدين كعيد الفطر والنحر باعوث من الانبعاث كأنه يخرج، ولهذا بعضهم -بعض المتقدمين- يفسر الباعوث بأنه خروج إلى الصحراء للاستسقاء، لكن شيخ الإسلام يوسع المعنى فيقول: هو العيد الذي يظهرونه ويخرجون إليه منبعثين يأتون إليه من كل ناحية يتجمعون كالفطر والأضحى هو يمثل الفطر والأضحى عند المسلمين، فحينما يخرجون إلى الاستسقاء أو غير ذلك يسمونه عيد الباعوث، ولهذا في الفائق للزمخشري يفسره باستسقائهم، يقولون: يخرجون بصلبانهم إلى الصحراء فيستسقون فهو كالاستسقاء للمسلمين وهكذا ذكر هذا جماعة مثل صاحب النهاية في الأثر، وصاحب اللسان، وتاج العروس، وبعضهم يقول: إن أصله الباغوت وليس الباعوث، يقولون: أصله سرياني، والمشهور أنه الباعوث، وبعضهم عد ذلك من الغلط المشهور فذكره في جملة الأخطاء كما في غلط الفقهاء لابن بري، فهذا بالنسبة لهذه الأعياد، وأما ما ذكر من المراتب الدينية عندهم مثل البطريك، المطران، الأسقف، القسيس، الشماس فهذه كلها مراتب لما يسمى برجال الدين عندهم، وأعلاها البابا ثم يتفاوتون، وهذا ليس محل اتفاق عند النصارى فهم على اختلاف كبير كما هو معلوم، فالبروتستنت ليس عندهم هذا التدرج بهذه الطريقة، حينما تجد هذا في بعض الكنائس الشرقية فهو يختلف من طائفة لأخرى، ومن شاء أن ينظر إلى معاني هذه جميعاً يمكن أن يراجع من المصادر اليسيرة التي يستطيع أن يصل إلى ذلك بسهولة "الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب والفرق" في المجلد الثاني، وهكذا بالنسبة للمذاهب المشار إليها النسطورية هي موجودة في "الملل والنحل" للشهرستاني، وهكذا اليعقوبية، وبعضهم يقول: إن اليعقوبية هم الأرثوذوكس، وإن الملكانية هم الكاثوليك لكن البروتستنتية وُجدت بعد ذلك.

وكان من عقلاء الرجال، ومن أحزم الملوك وأدهاهم، وأبعدهم غورا وأقصاهم رأيا، فتمَلَّكَ عليهم في رياسَة

عظيمة وأبهة كبيرة، فناوأه كسرى ملك الفرس، ومَلَكَ البلاد كالعراق وخراسان والرّي، وجميع بلاد العجم، وهو سابور ذو الأكتاف، وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر، وله رياسة العجم وحماقة الفرس، وكانوا مجوساً يعبدون النار.

قوله: **ذو الأكتاف** يقال لمن حصلت له غضبة فجاء إلى هذا الساحل الذي هو غرب الخليج العربي، فجاء فكان ينتقم بخلع أكتاف الرجال وهم أحياء، فصار على طول هذا الساحل يفعل بهم ذلك ولا يقف في وجهه أحد، كانت قبائل ضعيفة حتى وصل إلى قريب من الأحساء، وأن امرأة قالت له كلاماً استحى بعد ذلك منه، يعني كلمته وقالت له: إن كنت تريد أن تنتقم وتحصل ثأراً فقد حصلته أو كلاماً نحو هذا، الشاهد أنه بعد ذلك ذهب فلقب بذي الأكتاف، -والله المستعان-، وهذه من حماقات الفرس وله حماقات معروفة في التاريخ، ومن قرأ في الفتوحات الإسلامية لبلاد فارس رأى من ذلك أشياء، وما يدلك على حماقاتهم ما سيذكره مما جرى لهم من ملك الروم.

فتقدم عن عكرمة أنه بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكَسَره وقصره، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية، فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه، وكانت النصارى تعظمه تعظيما زائدا، ولم يقدر كسرى على فتح البلد، ولا أمكنه ذلك لحصانتها؛ لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر، فكانت تأتيهم الميرة والمَدَد من هنالك، فلما طال الأمر دبر قيصر مكيدة، ورأى في نفسه خديعة، فطلب من كسرى أن يقلع عن بلاده على مال يصالحه عليه، ويشترط عليه ما شاء، فأجابه إلى ذلك، وطلب منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا، من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة، فطاوعه قيصر، وأوهمه أن عنده جميع ما طلب، واستقلّ عقلَه لما طلب منه ما طلب، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عُشْره، وسأل كسرى أن يُمكّنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته، ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه، فأطلق سراحه، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية جمع أهل ملته وقال: إني خارج في أمر قد أبرمته، في جند قد عينته من جيشي، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار، إن شئتم استمررتم على بيعتي، وإن شئتم وليتم عليكم غيري، فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حيا، ولو غبت عشرة أعوام، فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة في جيش متوسط، هذا وكسرى مُخَيّم على القسطنطينية ينتظره ليرجع، فركب قيصر من فوره وسار مسرعا حتى انتهى إلى بلاد فارس، فعاث في بلادهم قتلا لرجالها ومن بها من المقاتلة، أولا فأولا ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن، وهي كرسي مملكة كسرى، فقتل من بها، وأخذ جميع حواصله وأمواله.

يعني هي العاصمة، هذا مُرابط على القسطنطينية، وهذا يعيث في أرضه فساداً ويأخذ أولاده وبناته ويسوقهم وينهب خزائنه و يبطش ويفتك، وهذا مرابط عند القسطنطينية ينتظر متى يأتي بحواصله ودفائنه.

وأسر نساءه وحريمه، وحلق رأس ولده، وأركبه على حماره.

أركبه على حماره يعني إهانة وإذلالاً، يركب ولد ملك الفرس على حمار.

وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة، وكتب إلى كسرى يقول: هذا ما طلبت فخُذه،

فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصيه إلا الله -عز وجل-، واشتد حنقه على البلد، فاشتد في حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك، فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون التي لا سبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها، فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها، وهو أنه أرصد جنده وحواصله التي معه عند فم المخاضة.

يعني يتجه باتجاه معين يجري في هذا النهر، هو يريد أن يرصد المدخل إلى القسطنطينية الطريق الذي سيمر به قيصر، فلذلك أرسل ملك الروم مجموعة عند فم المخاضة -جبهة بعيدة- وصاروا يُلقُون، كان جاء معه بأشياء للدواب من -أكرمكم الله- التبن ونحو ذلك، فصار مَن هناك يلقون التبن -أعزكم الله- والبعر ونحو ذلك في فم المخاضة، هو لما رآه ظن أنهم يعبرون من تلك الجهة وأن هذه آثار الدواب فانطلق إلى تلك الناحية فمر هرقل من المكان الذي كان يتوقع أن يمر به ابتداءً فخدعه بهذه الطريقة فدخل في القسطنطينية وأغلق الأبواب، وذلك بقي يتحسر أيرجع إلى بلده التي فُعل بها كل ما سمعتم أو يبقى مرابطاً وهرقل قد دخل في القسطنطينية وتحصن بها ولا سبيل له إليها.

وركب في بعض الجيش، وأمر بأحمال من التبن والبعر والروث فحملت معه، وسار إلى قريب من يوم في الماء مُصعدا، ثم أمر بإلقاء تلك الأحمال في النهر، فلما مرت بكسرى ظن هو وجنده أنهم قد خاضوا من هنالك، فركبوا في طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض في الخوض، فخاضوا وأسرعوا السير ففاتوا كسرى وجنوده، ودخلوا القسطنطينية، وكان ذلك يوما مشهودًا عند النصارى، وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون،لم يحصلوا على بلاد قيصر، وبلادُهم قد خَرّبتها الروم وأخذوا حواصلهم، وسبوا ذراريهم ونساءهم، فكان هذا من غَلَب الروم فارسَ، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب الفرس للروم.

وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غُلبت الروم بين أذرعات وبُصرى، على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما، وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز.

وقال مجاهد: كان ذلك في الجزيرة، وهي أقرب بلاد الروم من فارس، فالله أعلم.

هو يريد أن يتحدث عن أطراف الشام فقال: **وكانت الواقعة بين أذرعات وبصرى،** فأطراف الشام أذرعات وبصرى، فبصرى هي التي يقولون لها: حوران وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز، ومجاهد يقول: **كان ذلك في الجزيرة،** وقوله -تبارك وتعالى-: {فِي أَدْنَى الْأَرْضِ} كثير من المفسرين يقولون: {أَدْنَى الْأَرْضِ} يعني إلى بلاد العرب، وقالوا: إن ذلك إذا أطلق في مخاطبته -مخاطبة العرب- فالمقصود أرض العرب، {فِي أَدْنَى الْأَرْضِ} يعني أقرب بلاد الشام إلى بلاد العرب، وبعضهم يقول: العكس {أَدْنَى الْأَرْضِ} أدنى أرض العرب إلى بلاد الشام، ويقولون: هذا هو المعهود حينما يخاطبون بمثل هذا، بعضهم كما يقول: هي الجزيرة أو أذرعات، وبعضهم يقول: الأردن، وبعضهم يقول: فلسطين، وبعضهم يقول غير ذلك، وبعضهم يقول: الألف واللام في قوله: {فِي أَدْنَى الْأَرْضِ} عوض عن المضاف إليه ويكون المعنى على هذا: في أدنى أرضهم، {غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ} فيعود الضمير إلى أرضهم فيعود الضمير إلى الروم، وبعضهم يفصل كابن عطية في كتابه المعروف "المحرر الوجيز" يقول: إن كانت الواقعة –المعركة- في

أذرعات فهي في أدنى الأرض قياساً إلى مكة هي أقرب إلى جزيرة العرب، فهي أدنى بالقياس على كسرى، يعني لما تخرج من العراق تأتيك الجزيرة فهي بين الشام والعراق، وكسرى في طريقه إلى الشام يمر بالجزيرة، وإن كانت في الأردن فهي أدنى إلى أرض الروم، و ابن جرير -رحمه الله- يقول: هي أدنى أرض الشام إلى أرض فارس، أدنى أرض الشام إلى أرض فارس هذا هو المتوقع الطبعي؛ لأنه سيأتي من فارس إلى بلاد الروم فأدنى ذلك سيكون في الجزيرة فهذا هو الغالب، لكن الجزم بمثل هذا يصعب ولا تترتب على تحديده فائدة، وإنما المقصود فقط معرفة المعنى {فِي أَدْنَى الْأَرْضِ} والذين قالوا في أدنى الأرض بالنسبة لأرض العرب اعتمدوا على ما سبق من أن المخاطبين العرب حينما يقال لهم: {أَدْنَى الْأَرْضِ} يعني إلى بلادهم مع أنه لا يبعد أن يكون المراد {أَدْنَى الْأَرْضِ} يعني أدنى أرض الروم إلى بلاد فارس، أما تفسير أدنى الأرض بأنه يعنى أكثر الأماكن هبوطاً ونزولاً، ويقولون: إن هذا كان في الأردن أو غور الأردن أو نحو ذلك، وإن هذه المنطقة تعتبر أكثر منطقة في العالم منخفضة وما أشبه ذلك، فهذا كما يقوله بعض من يتكلم بالإعجاز العلمي، وهذا فيه بُعد، والدنو بمعنى القرب، وليس المقصود بأدنى الأرض أنه من حيث السفل، -والله أعلم-.

هنا قال: {وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ} هنا لم يتكلم على هذا، ما تطرق لها؟ {غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ} من بعد غلبهم، الآن هذا بعد غلبهم على قراءة أهل الشام يكون مضافاً إلى الفاعل {الم * غَلَبَتِ الرُّومُ} ومضافاً إلى المفعول على قراءة الجمهور.

وقوله: {لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ} [سورة الروم:٤]، أي: من قبل ذلك ومن بعده، فبني على الضم لما قُطع المضاف، وهو قوله: {قَبْلُ} عن الإضافة، ونُويت.

نويت بمعنى الإضافة من قبلُ وبعدُ، ويقول: {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ} بنصر الله أي بالروم أصحاب قيصر، يفرحون بانتصارهم، وبعضهم يقول: يفرحون بنصر الله من جهة تحقق الوعد وظهور النبوة، يعني النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبرهم عن هذا وصار هناك تحدٍّ والمشركون فرحوا بانتصار الفرس وافتخروا به وتيمنوا بذلك أنهم سينتصرون على المسلمين، فجاءت العاقبة بعد ذلك بانتصار الروم ففرح المسلمون بتحقق هذا الوعد، وبعض أهل العلم يقول: إن هذا الفرح المشار إليه إنما كان من انتصارهم في يوم بدر وإنه يوافق اليوم الذي حصل فيه انتصار الروم على الفرس، والمسلمون فرحوا بهذا وهذا، وكأن الانتصار الذي حصل كان في مكة فكسب أبو بكر -رضي الله عنه- الرهان ولا يبدو -والله أعلم- أن ذلك حينما كانوا في المدينة فلم يكن هناك اتصال مع المشركين، وإنما كانت الحرب قائمة بينهم، فظاهره أن ذلك كان وهم في مكة، والله أعلم.

{وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ} أي: للروم أصحاب قيصر ملك الشام، على فارس أصحاب كسرى، وهم المجوس، وقد كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كبيرة من العلماء، كابن عباس، والثوري، والسُّدِّي، وغيرهم.

ففرحوا به، وأنزل الله: {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} ابن جرير -رحمه الله- جمع بين المعنيين في الفرح، قال يفرحون بانتصار الروم على الفرس، ويفرحون

بانتصارهم هم على المشركين، وهذا لا إشكال فيه، مع أن الظاهر أنه بتحقق الوعد وانتصار الروم، أو انتصار الفرس على الروم؛ لأنه قال: {غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ} يومئذ يعني يفرحون بهذا الانتصار للروم على الفرس، وهذا لا يمنع من أن يكون في ضمن ذلك فرح آخر أعظم منه، وهو انتصار المسلمين على المشركين، فابن جرير جمع بين هذا وهذا، جمع بين الفرحين وأن هذا الوعد فيهما.

وقد ورد في الحديث الذي رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والبزار، عن أبي سعيد قال: لما كان يوم بدر، ظهرت الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين وفرحوا به، وأنزل الله: {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}[٤].

هذه الرواية عن أبي سعيد -رضي الله عنه- تتأتي على قراءة الفتح {غَلَبَتِ الرُّومُ}.

وروى ابن أبي حاتم عن العلاء بن الزبير الكلابي قال: رأيت غلبة فارس الروم، ثم رأيت غلبة الروم فارس، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم، كل ذلك في خمس عشرة سنة.

وقوله: {وَهُوَ الْعَزِيزُ} أي: في انتصاره وانتقامه من أعدائه، {الرَّحِيمُ} بعباده المؤمنين.

وقوله: {وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ} أي: هذا الذي أخبرناك به -يا محمد- من أنا سننصر الروم على فارس وعدٌ من الله حق، وخَبَر صدق لا يخلف، ولابد من كونه ووقوعه؛ لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق، ويجعل لها العاقبة، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} أي: بحكم الله في كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل.

وقوله: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} أي: أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشئونها وما فيها، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون عما ينفعهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم مُغفّل لا ذهن له ولا فكرة.

قال الحسن البصري: والله لَبَلَغَ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه، وما يُحسن أن يصلي.

وقال ابن عباس في قوله: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} يعني: الكفار، يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال.

وقال الشنقيطي -رحمه الله-: "وَأَمَّا الثَّانِي مِنْهَا: وَهُوَ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ وَهُمُ الْكُفَّارُ لَا يَعْلَمُونَ، فَقَدْ جَاءَ مُوَضَّحًا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، فَقَدْ بَيَّنَ تَعَالَى فِي آيَاتٍ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ هُمُ الْكَافِرُونَ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} [سورة هود:١٧]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ} [سورة الصافات:٧١]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} [سورة الشعراء:٨]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ} [سورة الأنعام:١١٦]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة يوسف:١٠٣]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

---

٤ - رواه الترمذي، كتاب القراءات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الروم، برقم (٢٩٣٥).

وَقَدْ بَيَّنَ -جل وعلا- أَيْضًا فِي آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ أَنَّ الْكُفَّارَ لَا يَعْلَمُونَ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [سورة البقرة:١٧٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [سورة البقرة:١٧١]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [سورة الفرقان:٤٤]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [سورة الأعراف:١٧٩]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [سورة الملك:١٠]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَأَمَّا الثَّالِثُ مِنْهَا: وَهُوَ كَوْنُهُمْ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَقَدْ جَاءَ أَيْضًا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} [سورة العنكبوت:٣٨]، أَيْ: فِي الدُّنْيَا، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} الْآيَةَ [سورة النجم:٢٩-٣٠].

وَأَمَّا الرَّابِعُ مِنْهَا: وَهُوَ كَوْنُهُمْ غَافِلِينَ عَنِ الْآخِرَةِ، فَقَدْ جَاءَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ ; كَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْهُمْ: {هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا} الْآيَةَ [سورة المؤمنون:٣٦-٣٧].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْهُمْ: {وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ} [سورة الدخان:٣٥]، {وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} [سورة الأنعام:٢٩]، {مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} [سورة يس:٧٨]، وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ مَعْلُومَةٌ"[٥].

{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ} [سورة الروم:٨-١٠].

يقول تعالى منبهًا على التفكر في مخلوقاته، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ} يعني به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة، والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما خلقت سُدًى ولا باطلا بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة؛ ولهذا قال: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ}.

قوله هنا: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ} كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: **يعني به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي وما بينهما من المخلوقات المتنوعة والأجناس المختلفة فيعلموا أنها لم تخلق سدى... إلى آخره،** بهذا تكون الأنفُس ظرفاً للتفكر يعني يتفكر في قلبه في داخل نفسه، ويجيل النظر فحينما ينظر في خلق الله -تبارك وتعالى- السماوات والأرض وما إلى ذلك يعلم

---

٥ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن(١٦٥/٦).

أنها ما خلقت عبثا ولا باطلاً، ويتوصل بذلك إلى المطالب العظيمة التي تحصل من جراء هذا التفكر من توحيد الله -عز وجل- ومعرفة أوصافه الكاملة، وكذلك ما يصير الناس إليه من البعث والنشور والعدل الذي يقيمه الله -عز وجل- بين الخلائق فيحكم بينهم فيكون هنا قوله: {فِي أَنْفُسِهِمْ} -هذا على كلام ابن كثير- "في" للظرفية {فِي أَنْفُسِهِمْ} يتفكروا في أنفسهم فمحل التفكر وظرفه يكون في النفوس يعني في القلب يتفكروا في قلوبهم مثلاً، لا أعني بالضرورة أو بدقة أن النفس هي القلب، لا أعني هذا الآن، لكن لتقريب المعنى {يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ} يجيل النظر في قلبه ويتبصر وينظر ويتدبر في هذه المخلوقات {يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ} والله -تبارك وتعالى- جعل للناس السمع والأبصار والأفئدة من أجل أن يتفكروا ويتدبروا ويكتسبوا بذلك العلوم الغائبة عنهم أو التي لا تحصل إلا بالتطلب والنظر والتفكر، فيحصل لهم الاعتبار وما إلى ذلك من نتائج التفكر فتكون النفس ظرفاً له، ويحتمل أن يكون ذلك -أعني النفس- مفعولاً للتفكر، يتفكر في نفسه ينظر في خلق الله -تبارك وتعالى- لهذا الإنسان، تفكر في نفسك وما أعطاك الله وحباك فتكون النفس مفعولاً للتفكر يعني يكون التفكر واقعاً عليها {وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [سورة الذاريات:٢١] فهذا الإنسان في خلقه والأطوار التي يمر بها من النطفة إلى العلقة إلى المضغة ثم بعد ذلك يتحول إلى شيء آخر ثم يكون على أطوار، وبعدما يخرج إلى هذه الحياة، كل ذلك يدل على قدرة الله، ويدل على أن هذه الحياة لها منتهى وأن هذا ليس بنهاية المطاف، فهذا التفكر يدل على أشياء، لو نظر في نفسه وهو في بطن أمه له أرجل، ولكن لا يحتاج إليها، له يد لا يحتاج إليها، له أعين لا يحتاج إليها، له سمع لا يحتاج إليه، فهو معد لمرحلة أخرى فيخرج إلى هذه الحياة الدنيا، ثم بعد ذلك لو نظر في حاله في هذه الحياة الدنيا لعلم أن هناك أشياء لا يمكن أن تتحقق في هذه الحياة وهي في نفس الإنسان، وإنما تتحقق في مرحلة أخرى بعد ذلك فيكون المعنى: أفلم يتفكروا في خلق الله إياهم في أنفسهم لم يكونوا شيئاً، ثم صرفهم على أحوال وأطوار حتى صاروا رجالاً فيستدلون بذلك على ما ذكر، وهذا المعنى هو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وظاهر كلام ابن كثير على المعنى الأول، والآية تحتمل هذا وهذا، ولو قال قائل: إنها تحمل على هذا، وإن القرآن دل على معنيين لم يكن ذلك بعيداً -والله أعلم-، فالقرآن يعبر بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فالتفكر يجول في النفس، في القلب، ينبعث منه، وأيضاً نظرُ الإنسان إلى خلق الله -عز جل- فيه وما صرفه فيه من الأطوار والأحوال وما إلى ذلك دال على كمال قدرته وحكمته، ويستدل به إلى ما وراء ذلك أي ما يصير إليه الإنسان، ولابد من الموت والفناء ثم البعث والنشور، يبدو هلالاً ثم يكمل بدراً، ثم إذا أراد الله -عز وجل- له صار إلى الذبول فيتحول إلى هلال حق حتى ينطفئ ثم يفارق هذه الحياة الدنيا، -والله تعالى أعلم-، ولو قيل: إنها تحمل على المعنيين لم يكن ذلك بعيداً، ولهذا قال تعالى: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ}، وقوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ}، ففكروا في أنفسهم {مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} فما هذه بعضهم يقول: نافية، وبعضهم يقول: هي اسم في محل نصب على إسقاط الخافض يعني أولم يتفكروا بما خلق الله، وأن العامل فيها العلم الذي يؤدي إليه التفكر يعني سيعلموا، أي يحصل لهم من جراء هذا التفكر العلم، يتفكروا بما خلق الله، لكن كأن الأول أقرب نظراً للسياق {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا

بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} إذا كانت نافية هذا أقرب -والله تعالى أعلم-، يتفكروا فيحصل لهم العلم بذلك وأن الله ما خلق السماوات والأرض إلا بالحق، وبعضهم -كالزجاج- يقول: في الكلام حذف "أولم يتفكروا فيعلموا" فـ"ما" تكون على هذا معمولة للفعل المقدر لا العلم المدلول عليه، "أولم يتفكروا فيعلموا ما خلق الله السماوات والأرض إلا بالحق"، ونتيجة هذا التفكر العلم بأن ذلك حق، فإذا حصل لهم إجالة الفكر والفكر كما يقول أهل المنطق هو نظر العقل، حركة العقل في المعقولات هذا هو الفكر، وحركته في المحسوسات يقولون هي التخيل، فهذا التفكر قريب من التدبر، فإذا أجال فكره في المعقولات وربط بين المعاني توصل إلى نتيجة من جراء هذا التفكر، فالتفكر يكون معه حكم ربط أمر بآخر وتخرج بحكم، بخلاف القضايا التي يسمونها التصورية -التصورات كلها عند أهل المنطق- فالتصورات مثل التعاريف، تعرف أن الفقه هو معرفة الأحكام الشرعية الفرعية بأدلتها التفصيلية مثلاً هذا تصور، لكن هل عرفتَ مسألةً الآن من هذا فقهية؟ هل صرتَ فقيها؟ لا، فهذا يسمونه تصوراً، فالحكم يكون مع التفكر، والتفكير يكون في المعاني، يقولون: أما إجالة الذهن في المحسوسات فهي التخيل {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، يتفكروا يحصل لهم العلم بأن ذلك حق وأنه ليس للعبث، أن الله ما خلق السماوات والأرض للهو والعبث والباطل، {مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا} بينهما: بين السماوات والأرض السحاب مثلاً، كل ما بين السماء والأرض وكذلك الهواء والطيور فهو يشمل ذلك جميعاً، ولهذا قال الله -عز وجل-: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ} [سورة الملك:١٩] فهذا مما يرونه بين السماء والأرض ففي صفّ أجنحتها وقبضها آية من آيات الله -عز وجل-، من الذي يمسكها في الهواء فلا تسقط؟ الله -تبارك وتعالى- هو الذي سخر لها ذلك، وهكذا ما يحصل من التسخير مما يشبهه مما توصل الناس إليه اليوم عن طريق الطيران في الهواء، من الذي يمسكها كما أمسك الفلك -المراكب البحرية- على الماء ولفت الأنظار إلى هذا وأنه {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ} [سورة الشورى:٣٢]، كأن الواحد على جبل، تمشي على الماء كأنها على يابسة {مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} ابن كثير ما تكلم على هذا المعنى {وَأَجَلٍ مُسَمًّى}، لم يتطرق إليها، ما فيه شيء، قوله هنا: {إِلَّا بِالْحَقِّ} يحتمل أن تكون الباء للسببية يعني إلا لسبب الحق، ما خلقها إلا لسبب الحق، ويحتمل أن تكون الباء مع مجرورها في محل نصب على الحال فتكون حالية، بالحق حال، ويحتمل أن تكون بمعنى {مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} يعني إلا متلبسة، إلا خلقاً متلبساً بالحق، ما خلق ذلك إلا بالحق، خلقها خلقاً متلبساً بالحق، وهذا من أوضح المعاني في تفسيرها، وهو الذي ذهب إليه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وبعضهم كالفراء يقول: {إِلَّا بِالْحَقِّ} يعني الثواب والعقاب، أنه خلقها لغاية وهي ليست للعبث، وبعضهم كابن جرير يقول: {إِلَّا بِالْحَقِّ} بأمر العدل، وبه قامت السماوات والأرض، وبعضهم يقول: بالحكمة، وبعضهم يقول: الله هو الحق وللحق خلقها يعني {مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ}، قال: هو الحق، وللحق خلقها، ما هو هذا الحق الذي خلقها له؟ يدخل بهذا ما ذكره ابن جرير: العدل، ويدخل فيه ما ذكره الفراء: الثواب والعقاب، فهذا من العدل فهو بمعناه، وإن كان العدل أوسع من هذا وأعم -والله تعالى أعلم-، والمعنى العام أن الله ما خلقها عبثا وإنما لغاية، وهذه الغاية خلقها خلقاً متلبساً بالحق، وهو ظاهر، لكن حينما يقول: والله خلقها لغاية،

تقول: الثواب والعقاب {وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} [سورة الجاثية:٢٢]، للعدل، هذه المعاني متقاربة يعني في تفسير الغاية التي خلق الله من أجلها السماوات والأرض، "إلا بالحق وأجل مسمى" في الأصل ما ذكره في تفسير الأجل المسمى هو القيامة، هكذا قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **بعضهم يقول هو معطوف على** بالحق، خلقها بالحق وبأجل مسمى تنتهي إليه وهو يوم القيامة، ولهذا يقول بعض المفسرين بأن خلق الخلق ينتهي إلى أجل حدده هو يوم القيامة، وبعضهم يقول: إن المقصود بذلك أن الله خلقها بأجلٍ قدره، يعني في وقتٍ قدره هو أن توجد فيه هذه المخلوقات السماوات والأرض وما بينهما، فكل كائن فيهما ومخلوق فإن الله قد قدر له وقتاً يوجد ويخلق فيه لا يتعداه لا يتقدم على ذلك ولا يتأخر عنه، وهذا المعنى الثاني، المعنى الأول: وأجل مسمى يعني تنتهي إليه، والمعنى الآخر: خلقها بالحق وأجل مسمى توجد فيه، إذا قلنا: إنه ما خلقها إلا بالحق يعني لغاية عظمى، وإن ذلك ليس للعبث فكأن الأقرب -والله تعالى أعلم- أن يكون المعنى وأجل مسمى تنتهي إليه، فذلك أعلق لهذا المعنى وهو أنه خلقها لغاية وسيكون لها نهاية حددها الله -تبارك وتعالى- وهو يوم القيامة، وهذا الذي رجحه ابن جرير وبعض المحققين المعاصرين كالشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله.

قالوا: ولهذا قال الله تعالى: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ} يناسب -أي المعني- ما تنتهي إليه {مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} لغاية عظمى وحكمة كبرى وأجل مسمى تنتهي إليه قال: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ} فلو تفكروا لعرفوا ذلك وتوصلوا بهذا التفكر إلى هذه النتيجة، ولم يحصل منهم كفر.

ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه، بما أيدهم به من المعجزات، والدلائل الواضحات، من إهلاك مَنْ كفر بهم، ونجاة مَنْ صدقهم، فقال: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ} أي: بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماعهم أخبار الماضين؛ ولهذا قال: {فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً} أي: كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم -أيها المبعوث إليهم محمد -صلوات الله وسلامه عليه- وأكثر أموالا وأولادا، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومُكنوا في الدنيا تمكينا لم تبلغوا إليه، وعمروا فيها أعمارًا طوالا فعمروها أكثر منكم، واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله مِنْ واق، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال {وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} أي: وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله، واستهزءوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم.

أي: وإنما أوتوا من أنفسهم، وفي قوله -تبارك وتعالى- عن هؤلاء الأمم: {كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً} المتبادر لدى الكثيرين من المفسرين في عصرنا هذا -عامة الخلق عامة الناس من المسلمين وغيرهم- أنه ما أعطيه الناس اليوم من أسباب التقدم المادي والمعرفة والحذق بهذه الأمور أن ذلك لم يحصل لأحد من الأمم قبلنا، لم يحصل لجيل من الأجيال، وهذا الكلام غير صحيح، نحن لا نعرف التفاصيل، لكن ما يقوله أصحاب نظرية التطور وما أفرزت به هذه النظرية من أن الخلق مر بأطوار، أن البشر مروا بأطوار، ويذكرون العصور

العصر الحجري، والعصر البرونزي هذا كله كذب ولا حقيقة له، هذا لا حقيقة له، والله -عز وجل- أخبر أنه خلق آدم وكرمه وعلمه الأسماء كلها ما فيه حالة من الجهالة والعماية، أنزله من الجنة، كان الناس على التوحيد كما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- عشرة قرون ثم بعد ذلك وقع الشرك، ولا زال الأنبياء يأتون إلى أقوامهم والآثار الباقية من تلك الأقوام تدل على حذق لم يتوصل الناس إلى أسبابه إلى اليوم، وانظروا على سبيل المثال في هذا الحذق فيما بقي من أمثال هؤلاء: الأهرام على سبيل المثال كيف استطاعوا بناء هذه الأهرام بهذه الضخامة، ونقل هذه الأحجار الضخمة، وعامة المؤرخين يقولون: إن ذلك لا يعرف له تاريخ، وبما أنه لا يعرف له تاريخ فيرجحون أنه كان قبل الطوفان مع أنهم دخلوها ووصفوا ما في داخل هذه الأهرام، ذكروا التوابيت وذكروا الأشياء هذا كله ذكروه أقرءوا في خطط المقريزي، وفي حسن المحاضرة للسيوطي لما ذكر أخبار مصر والقاهرة، ذكروا هذه الأشياء كلها، كيف بنيت؟ بقايا أرض ثمود الجبال المنحوتة بنحت أملس وعجيب مع زخارف ما زالت موجودة، وصور طيور، وصور أشياء على مداخلها، كيف توصلوا إلى هذا النحت؟ هذه الجبال الوادي ميلان، طويل لا تستطيع أن تمشي فيه طولاً وعرضاً على قدميك إلا بشق الأنفس، وهي دور منحوتة بهذه الطريقة الدقيقة في النحت تشاهدون صورها كيف توصلوا إلى هذا؟ وهل كان ذلك بأشياء بسيطة وآلات متخلفة كما يوضع في بعض المتاحف يصور الناس ويقال: في العصر الحجري؟ يأتون بقطعة حجر مستطيلة تجدها في أي مكان في كسر من الحصى، ويقولون: هذه تستعمل عندهم لكذا، وهذه تستعمل عندهم لكذا، وهذه قبل مليون وقبل كم سنة، كله كذب ورجم بالغيب، مكان بعيد، فمثل هذه الأشياء كيف توصلوا إليها مع أن الأرض تحوي في داخلها ما الله به عليم مما طُمر، وعلى سبيل المثال أبو الهول هذا الصنم رأسه رأس إنسان وجسمه جسم أسد، هذا ضخم، وهذا كان مدفوناً ولا يعرف، وإنما لما جاءت الحملة الفرنسية ومعهم مائة وستة وأربعون عالماً في الآثار بدءوا ينبشون ويحفرون فاستخرجوا هذه الأشياء، وقبل مدة قريبة في الطريق رأيت مكان قلعة ضخمة جداً كبيرة أهل البلد هذه: نحن نسكن هنا، هذه بيوتنا مدفونة، مع أنه لا يتبادر أنها مدفونة؛ لأنها أرض صخرية جبال دُفنت، فلما حُفرت بدت جدرانها ضخمة وبركة ماء ضخمة في داخلها مسبح وأشياء عجيبة في غاية الإحكام في البناء، فهؤلاء الذين عمروا هذه الأشياء وشيدوها، وكل عجائب الدنيا السبع التي يقولون عنها عجائب الدنيا السبع كانت للسابقين ليس للمعاصرين منها شيء، ظنُّ الناس غرورُ الناس في هذا العصر أنهم توصلوا إلى أشياء ما توصل إليها السابقون، هذا غير صحيح لكن نحن لا نعرف تفاصيل، لكن نرى من الآثار ما يدل على هذا، والله تعالى أعلم.

ولهذا قال: {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ}، **كما قال تعالى:** {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [سورة الأنعام:١١٠]، **وقوله:** {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [سورة الصف:٥]، **وقال:** {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ} [سورة المائدة:٤٩].

وقيل: بل المعنى في ذلك: {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى} **أي: كانت السوءى عاقبتهم؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون، فعلى هذا تكون السوءى منصوبة خبر كان، هذا توجيه ابن جرير، ونقله**

عن ابن عباس وقتادة، ورواه ابن أبي حاتم عنهما وعن الضحاك بن مُزاحم، وهو الظاهر، والله أعلم، لقوله: {وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ}.

هنا يقول: **كانت السوءى عاقبتهم لأنهم كذبوا بآيات الله** يعني صار أمرهم إلى السوء، وآل أمرهم إلى البوار والهلاك في الدنيا والآخرة، وعبارة ابن جرير -رحمه الله- يقول: ثم كان آخر أمر من كفر من هؤلاء الذين أثاروا الأرض وعمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات وكذبوا رسلهم فأساءوا بذلك من فعلهم، يقول: السوءى يعني الخلة التي هي أسوأ من فعلهم، أساءوا فلحق بهم وأصابهم وآل أمرهم إلى السوء أو إلى عاقبة سيئة جراء فعلهم يعني الكفر والتكذيب، يقول: أما في الدنيا فالبوار والهلاك، أهلكهم الله -عز وجل- بالعذاب المستأصل -الأمم المكذبة-، وأما في الآخرة فالنار، {أَن كَذَّبُوا} يعني لأن كذبوا، لأنهم كذبوا.

توجيه ابن جرير هو الذي سبق منذ قليل وهو الذي ذكره ابن كثير هنا، كانت السوءى عاقبتهم، والمختصر حذف قولاً آخر وهو أنها مفعول لأساءوا، أساءوا السوءى يعني فعلوا الفعلة السيئة، ماذا كانت عاقبتهم؟ التكذيب {أَن كَذَّبُوا} فآل أمرهم إلى التكذيب بسوء فعلهم، والمعنى الآخر الذي اختاره ابن كثير وابن جرير أنها خبر لكان، آل أمرهم إلى السوءى، وذلك عدل من الله -تبارك وتعالى- وما ظلمهم، ذلك لأنهم كذبوا بآيات الله -تبارك وتعالى-، هذه العاقبة السيئة بتكذيبهم، فعل السوءى الكفر؟، لا، الآن لما حاربوا الرسل وقالوا عنهم ما قالوا كانت نتيجة فعلهم هذا: التكذيب بما جاءوا به، رد ما جاءوا به، من توحيد الله -عز وجل- وتصديق رسله -عليهم الصلاة والسلام- ورد شرائع الله، فآل أمرهم إلى التكذيب، فالسوءى الذي فعلوه رأسه الكفر ويتفرع عنه كل أمر قبيح صدر عنهم، فآل بهم ذلك إلى التكذيب.

تم بحمد الله وفضله.